بين المنهج التاريخي والمنهج الاركيولوجي
- مقاربة في كتاب حفريات المعرفة لميشال فوكو-

Bridging the Gap between Historical and Archaeological Methods: A Review of Michel Foucault's Book "The Archaeology of Knowledge"

نادية بوذراع*

جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2-الجزائر n.boudraa@univ-setif2.dz

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2025-02-27	2025-05-27	2025-06-03

ملخّص: تبقى المناهج وسيلة البحث عن المعرفة / الحقيقة/ الدلالة، فالعالم الغربي في بداية عصر النهضة فتح أعينه على المنهج التاريخي بوصفه السبيل الوحيد للوصول إلى استقراء الماضي في كل صوره من أجل رسم معالم العصر الحديث، فلم يكن هناك سبيل آخر للعودة إلى هذا الماضي، سوى الوثائق الحسية التي خلفها الزمن، ولكن لم يلبث هذا المنهج أن أحال إلى مثالبه التي استدعت بحثا جديدا وفق معطيات جديدة، وهو ما أحال إلى استحداث عديد المناهج التي كان أقربها إليه المنهج الأركيولوجي لأن هدفه التاريخ و لكن وفق آليات مختلفة أبرز من مثلها ميشال فوكو.

-هذا النوع من المناهج ظهر يردد الشعارات ما بعد الحداثية و التي دعت إلى استنطاق الصمت واستدعاء المجهول وإعادة الاعتبار للمهمش والمهمل، علما أن الحقيقة لا تظهر واضحة و لكن تحتاج دائما من يحاول البحث عنها من أجل مقاربة بعض أطرافها.

كلمات مفتاحيّة: المنهج التاريخي؛ المنهج الأركيولوجي؛ ما بعد الحداثة؛ الوثائق الحسية؛ المعرفة.

Abstract: Methodologies endure as instruments for interrogating knowledge, truth, and significance. During the early Renaissance, Western scholarship prioritized the historical method as the only way to extrapolate the past in all its facets. However, this method soon revealed its shortcomings, prompting a fresh research based on new

* المؤلف المرسل

data, leading to the inception of several methodologies. Of these, the archaeological method was the most closely aligned with historical aims, but employed distinct mechanisms, as elucidated by figures like Michel Foucault. This type of approach reflects the postmodernist slogans that call for questioning silence, knowing that the truth does not appear clearly but always requires someone to try to explore it for the purpose of approaching some of its aspects.

Keywords: Historical Method; Archeological Method; Post-modernist;, Tangible Documents; Knowledge.

1-المقدمة: لاريب أن الدراسات التاريخية كانت فاتحة عصر النهضة وسبيل الوصول الوحيد الذي سلكه زعماؤها من أجل إعادة إحياء التاريخ المجيد للحضارة اليونانية، ولاشك أنه المنهج الذي رتب للعصر الحديث ركيزة متينة على أساسها تم الانطلاق، فمؤلفات أرسطو حول المنطق والعلم التجريبي كانت منطلقا للفلسفة العقلية والعلم التجريبي في العصر الحديث، ورغم الانتقادات التي وجهت للمنهج التاريخي والتي تدور حول المصداقية وفخ الذاتية إلا أنه لا يمكن الانكار أن العالم الغربي في بداية عصر النهضة كان سبيله الوحيد محاكاة القدماء واستلام مشعل الريادة عبر وساطات مختلفة، لم يسلم المنهج التاريخي كغيره من المناهج من الانتقادات التي وجهت له من أجل تغييره والبحث عن بديل له، كان الانتقاد مرحلة أولى للتجاوز في سبيل التطوير والاستمرار.

وكان التجاوز فتحا جديدا، إذ تم الالتحام حول الدراسات العلمية والموضوعية وانطلاقا من محاضرات فردناند دي سوسير علت رايات البنيوية تندد بالدراسات الراهنة والنسقية، سعيا منها إلى تحقيق الدقة واليقين في حضور الوثائق الحسية وراهنيتها في مقابل غيابها ونسبية الصورة التي وصلتنا مع الدراسات التاريخية، ولكن ظل مطلب الوصول إلى الحقيقة واليقين صعب التحقق حتى مع الدراسات البنيوية لأنها ألغت ظروفا وأسبابا لا شك في أنها كانت رافد من روافد الحقيقة، فالقضاء بموت المؤلف وحصر الدلالة داخل النص، قتلها بعدما قيدها وسجنها، إذ القضاء بموت المؤلف هو

في الوقت ذاته تحيين بميلاد القارئ فلا يستقيم النص وحده في غياب ذات متحركة منتجة تحاول البحث فيه عن دلالة، ولهذا سرعان ما تم تجاوز البنيوية وحجتهم في ذلك(النقاد) أنها كانت تحمل بذور فنائها بداخلها، إذ المبادئ التي انطلقت منها تقتل النص وتهمشه.

وهو ما استدعى التجاوز مرة أخرى وانفتاحا على قارئ يرجى منه الوصول إلى دلالة ما، ولعل تعدد الذوات القارئة كان الطريقة الوحيدة لفك قيود اليقين من جهة ومحاولة الإحاطة بجزء منه، ولهذا ارتبطت الدلالة في نظرية القراءة بتعدد الذوات التي تحاول الوصول إلى جزء منها، فكان كسر المركزية سببا في قبول التغيير من طرف نظرية القراءة واستمرارها مع كل جديد قد يساعد في الوصول إلى الدلالة وهذا ما أعاد المناهج السياقية من جديد لتطفو على سطح الدراسات النصية بعدما بقيت تشوش على النص اتزانه، ولكن في صورة جديدة مختلفة عن الصورة التقليدية.

فالتاريخ الذي عاد كان مختلفا من حيث تصوره وحتى تسميته في سبيل محاولة الوصول إلى اليقين، هذا المطلب الذي يأبى الانصياع والظهور في صورة واحدة من وجهة نظر واحدة، وتلك هي سبل الحقيقة في التبدي، إذ لا تسلم نفسها ولكن تحاول كل مرة الظهور في صورة معينة و لكنها مؤقتة، لتشير إلى وجودها لكنها ما تلبث أن تغير صورتها ليبقى مشروع البحث عنها مستمرا لا نهائيا، فلا سبيل للوصول إلى الحقيقة إذا انطلقنا من الصور الثابتة والمستمرة والمتشابهة، فكان الوصول إلى الدلالة مطلبا مشروعا من طرف النقاد وهو ما استدعى حضور المنهج الأركيولوجي أو الحفري أو الجنيالوجي في مقاربة النصوص، علما أن التاريخ مستمر ولم ينته لأنه منفصل عن صفة الاستمرارية.

– ومنه ما هي سبل تتبع الظاهرة؟ وما هي الحدود التي وضعت للأركيولوجيا؟، وما هي المبادئ التي يقوم عليها هذا المنهج؟ وما هي الثغرات التي رممها مقارنة بالمنهج التاريخي؟ أسئلة وأخرى كثيرة يحاول البحث الإجابة عنها في هذا السياق مستعينا بمجموعة من المراجع التي يعتقد أنها سبل تساعد في استقصاء الظاهرة. ولا بد أن العودة للأصل أسلم سبيل لتتبع الظاهرة فكان كتاب حفريات المعرفة لميشال فوكو هو الكتاب الأساس من أجل تقصي الظاهرة والتجربة في خصوصيتها.

2. مقاربة في المصطلحات: لا بد أن مفتاح كل بحث هو مصطلحاته التي يتكئ عليها، وهذا البحث يقوم على منهجين أساسيين ارتبطت سبل الوصول إلى المعرفة بهما، وهما المنهج التاريخي والمنهج الأركيولوجي، فعلى الرغم من الاختلاف البين بينهما من حيث المبادئ والخصائص التي اعتمدها كل واحد منهما، إلا أن محاكاة أو قراءة الماضي هو الهدف المشترك بينهما، ذلك أن الزمن منقضي لا محالة ومن حق المعرفة أن تستمر لتتوالد من جديد فلا سبيل لتهميش الماضي ولا نسيانه، فهو الركيزة التي تبقى تشوش على الحاضر مهما كان وضوحه، وهي دعوى ظهور مناهج تعيد الاعتبار للماضي بعد تهميشه فترة من الزمن في سبيل ضبط الحقيقة باليقين والمطلق، والبحث في بدايته سيتولى الحديث عن المنهج التاريخي اعتبارا منه أنه أولى المناهج التي ظهرت في عصر النهضة كبوابة سمحت للعالم الغربي الاطلاع على الماضي في غيابه بوساطة آليات إجرائية تبرر استعادة هذا الزمن المنقضي ومحاورته في الزمن الراهن، والحاضر، فكان المنهج التاريخي رائد عصر النهضة بامتياز.

1.2 المنهج التاريخي: الزمن متنه لا محالة ولا سبيل إلى استعادته، فيطوى الزمن وهو حامل لأسرار لا يمكن الاطلاع عليها، تلك دعوى ظهور المنهج التاريخي، ولابد أن الزمن منعدم ما لم يرتبط بحدث، والحدث ضائع مالم يرتبط بما يدل عليه، تلك

مبررات وجود المنهج التاريخي وعليه كان يركز على الوثائق الحسية بوصفها الملموس الذي لا يمكن للزمن أن يضيعه فهو الوجود المادي الذي لا تتجاوزه شروط الزمن، فالأشياء في العالم الواقعي هي السبيل الوحيد للوصول إلى اليقين في نظر أرسطو، أو على الأقل هي سبيل الوصول إلى الحقيقة التي يمكن أن نتفق حولها" التاريخ علم يبحث فيه عن حوادث البشر في الزمن الماضي، وهو من أهم العلوم التي يفتقر إليها الإنسان لأنه بمعرفته أمور جنسه يعرف نفسه، قال أحد الفلاسفة القدماء، أعظم أمر يبحث عنه الإنسان هو الإنسان. فيه يتحقق على قدر الطاقة، مصدره واختياره وغايته القصوى وشأنه في هذه الأرض"[1].

نسبت للمنهج التاريخي العديد من الانتقادات، تمحورت جلها حول المصداقية وإشكالية الذاتية، ورغم أنه وسيلة الانفتاح على الماضي المنتهي إلا أن بحوثه وصفت بالسطحية لعدم قدرتها على كشف الحقائق المتعلقة بالماضي، فلم يكن أمام المنهج التاريخي سوى جمع الوثائق المتوفرة والجمع بينها وربطها بكل الوسائل من أجل قراءة هذا التاريخ الذي يعتقد أنه صورة لما وجد عبر الزمن من وثائق تدل عليه، سعيا منه إلى تطبيق الموضوعية التي تستدعي الانطلاق من وثائق حسية تحيل إلى وجود هذه الفترة الزمنية المنقضية عبر التاريخ الغائبة من حيث طبيعتها، لأن كل الأحداث مصيرها النهاية والزوال لارتباطها بالزمن، والزمن في استمراره تجاوز لما بعده تلك طبيعة الزمن إذ ينتهي ليستمر ويتجاوز ليقع في الحاضر الذي مصيره الزوال والنهاية" وينبغي أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلى الحقيقة المطلقة، إذ أن هذا الأمر غير مستطاع لعوامل مختلفة مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار ومثل الأغراض والمصالح، ومن ذا الذي يمكنه معرفة الحقيقة المطلقة في الماضي والحاضر؟ فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ نسبية وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخيا بالمعنى الصحيح في حدود إمكانه"[2].

فما من سبيل للعودة إلى هذا الماضي إلا من خلال آثاره وما خلفه وباختلاف الوثائق التي تحيل إليه، فهي سبيل المصداقية الوحيد، والطريق الأصوب لمحاولة استقراء الماضي، ولعل الآليات الإجرائية للمنهج التاريخي مأخودة عن شروط العلم التجريبي التي وضعها أرسطو من قبل بغية الوصول إلى اليقين وتجاوز سبل التعمية التي كان يسلكها الذين سبقوه، في اعتقاده أن الواقع وعالم الحس هو القيد الوحيد للحقيقة ومبررها، فلا ريب أن الشروط التي ارتبطت بالمنهج التاريخي مبررة من حيث الاعتماد و قد سلكت سبيله كل المناهج على اختلافها، ولكن كان الفاصل بينهم هو قضية التعاقبية أو انتهاء الحدث في الزمن.

ولهذا سرعان ما لقيت البنيوية الرواج الذي غير طريقة التفكير ورأى (النقاد) أن الحقيقة ترتبط أكثر بالاتجاه البنيوي لدراستها وثائق حسية حاضرة في الزمن الراهن اعتقادا منهم أن هذا مبرر المصداقية والسبيل الوحيد إليها في غياب الزمن القديم، فجاءت المناهج النسقية ضد المنهج التاريخي، ونسبت إليه مجموعة من المآخذ التي يبرر من خلالها عدم ارتباطه باليقين وتأرجح الحقيقة التي ترتبط به، وهو السبب الذي جعل من البنيوية تتفوق عليه، من خلال اعتمادها لوثائق حاضرة تنتمي للزمن الراهن. "لقد نشأ الوعي الأوروبي وتطور دون بناء، حيث غلب عليه المنهج التاريخي باعتباره فكرا بينيا محصنا من صنع التاريخ (**diachronie**) نشأ في ظروف تاريخية محددة فتقدم تكوينه على بنيته التي هي صدى لهذه الظروف، مما سمح بتحول هذا التاريخ عينه إلى بنية (**structure**) ترى الظواهر كلها تاريخيا وتطورا"[3] فعثر للمنهج التاريخي على مجموعة من الثغرات، واستبدل على أساسها المفهوم التعاقبي المتسلسل بمفهوم البنية التي تدرس الظواهر في حضورها وفق نظام معين، بدل التعاقبية التي أرهقت البحث بمحاولاتها الربط بين الأحداث لتؤكد على تسلسلها، ولم يبق الأمر على حاله إذ سرعان ما تم تجاوز الدراسات النسقية نحو الدراسات ما بعد

الحداثية التي لم تعد تكتفي بما يقال ولكن أدركت أن الحقيقة أصعب من أن تفسرها كلمات ولكنها ذلك المهمش والمسكوت عنه، والغائب الذي يحيل إليه الحاضر عبر عديد الصور المختلفة، وهو ما استدعى الحديث عن المنهج الأركيولوجي كبديل عن المنهج التاريخي.

2.2 المنهج الأركيولوجي: المنهج الأركيولوجي أو الحفري أو الجينيالوجي، كلها مسميات لمفهوم واحد، وهو المنهج الذي ظهر حديثا ينتمي إلى التيار ما بعد الحداثي، والذي كان وجهته التاريخ، لكن ليس ذلك التاريخ الواضح الظاهر الذي تتم قراءته عبر مجموعة الوثائق التي يتم جمعها وضم بعضها إلى بعض، اعتقادا منا أن التاريخ واضح ظاهر وبين ومتسلسل في الزمن، كما كان ينظر إليه المنهج التاريخي، ولكن وفق معطيات وسبل مختلفة أوجدها إلغاء القراءة الخطية للأشياء اعتقادا من الباحثين أن الحقيقة ليست سهلة كما نعتقد ولكنها أعقد من أن تظهر وتتجلى، وهذه أفكار كل زعماء ما بعد الحداثة الذين سلكوا سبلا جديدة للبحث عن المعرفة والتي يعتقد أنها تقع في كل هامش أو انثناء أو صمت أو فراغ أو إشارة ليست في موضعها....، " مبدئيا لا بد من القول أن الأركيولوجيا هي ذلك العلم الذي يقوم بالبحث عن الأشياء ملموسة لحضارة قديمة تحت الردم منذ زمن بعيد، وهذا من خلال عملية البحث والتفتيش أو بالأحرى التحفيز فتوضع قيد الدراسة لتحليلها ثم إعادة تركيبها من جديد، ومن تبرز مظاهر الحياة القديمة ذلك أن المتأمل بعمق في اللغة اليونانية يجده مشتق من اللفظ اليوناني أركيه **(arche)** أما أرخايوس **(arkhalos)** الذي يعني القديم"[4]، فالأركيولوجيا هي بحث تحت الردم أو تحت الأنقاض، فالأصل في التسمية قبل أن تصبح منهجا معرفيا أو نقديا أن الأركيولوجيا هي علم الآثار.

فالأركيولوجيا تعني علم الآثار، وهو العلم الذي يتولى عملية التنقيب والحفر والنبش في طبقات الأرض من أجل البحث عن حقائق تاريخية متخفية ومردومة، في

اعتقادهم أن الحقيقة دائما تختفي ولا تظهر، فلا مجال للبحث عنها على سطح التاريخ ولكن يجب النبش والحفر لمحاولة إيجادها وسط ركام الماضي وأشيائه" لا تقتصر الأبحاث العلمية في علم الآثار الحديث على العثور على المواقع الأثرية والقيام بالحفريات فيها إذ يتم القيام بها في المختبرات بنفس القدر الذي تجري فيه في المواقع الأثرية، لقد أصبح علماء الآثار بمثابة محققين يلتقطون الأدلة من جميع أنواع الأشياء متناهية الصغر من العديد من المصادر"،[5] فيكون التركيز عند زعماء المنهج الأركيولوجي على صغائر أو الهوامش فالحقيقة تتخفى هناك و تختبئ عبر الزمن، وتنتظر من يحاول اكتشافها بين طيات الزمن وفي ثغراته، فلا بد من التركيز على كل منتمي للتاريخ مهما كانت بساطته.

فلا يقف المنهج الأركيولوجي موقف القارئ المستهلك للوثائق التي يجمعها ولكن يعاملها بذكاء حتى يكشف الزيف من خلالها ويقف على أهم الأحداث التاريخية المرتبطة بها، ولعل المفارقة بين المنهجين تكمن في استراتيجية التحليل عند كل اتجاه، ففي حين يستقرأ العالم وفق المنهج التاريخي بالوقوف على هامش الأحداث، يتحول الأركيولوجي إلا جزء منها إذ ينبش ويفرز ويحفر، وبدل الاستماع لما تقوله يبحث عن ما لم تقله "وقد أشار البعض إلى أن المدلول الحديث لهذا العلم يرتبط بأمرين أساسين، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، يختص أولهما بأعمال الحفر والتنقيب عن الآثار وتسجيل أوصافها وأوضاعها وصورها وترميمها والمحافظة عليها، ويختص ثانيهما باستخدام هذه الآثار المكتشفة في إلقاء الضوء على حضارة الإنسان في ماضيها القديم، والتعرف من ثم على المراحل المختلفة التي مرت بها هذه الحضارة في رحلة تطورها وازدهارها من خلال استقراء هذه الآثار واستنباط المعارف منها، ومن هنا وصف علم الآثار بأنه العلم الذي يهم كل إنسان والوقوف على خصائصها ومميزاتها وصولا إلى المعرفة

الحقيقية لهذه الحضارة إيجابا أو سلبا".[6] إذ كان المنطلق في الأركيولوجيا مأخوذا عن علم الآثار وطورت مبادئه انطلاقا من التيار ما بعد الحداثي والشعارات التي رفعها نيتشه حول سبل الوصول إلى الحقيقة التي يبقى البحث عنها مستمرا مؤجلا لارتباطها بما لم يتم الإفصاح عنه من طرف الأشياء.

ومن هذا المنطلق انتمى المنهج الأركيولوجي إلى التيار ما بعد الحداثي لتجاوزه المفهوم القديم للبنية الخطية التي تحيل في صورها إلى الدلالة والبحث فيما هو عصي على النظر والاستقراء، فلم يعد التمركز حول التخصص هو معيار البحث ولكن للقارئ كل الحرية في الانفتاح على أنواع المعارف، فالمنهج الأركيولوجي هو علم الآثار ليتحول إلى منهج نقدي يسعى للبحث عن الدلالة في بنياتها المبعثرة في الزمن "إن الموقف إزاء الفلسفة مع تيار ما بعد الحداثة عامة، وفوكو بصورة خاصة قد اتخذ مجرى آخر، يسير باتجاه مجال الفكر بعموميته والانفتاح على كل نمط من أنماط المعرفة، مهما تعددت مشاريعها وتنوعت اتجاهاتها"،[7] فلا مجال للقول بأحادية التخصص أو الانفصال سعيا للوصول إلى المعرفة التي يكون التخصص بالنسبة إليها تقصيرا في حق الوسائل التي تعتمد من أجل العثور عليها، والإحاطة بها.

ولعل الاتجاه الأركيولوجي لا يلتقط الحقيقة من التاريخ كما تبدو ولكن يحاول البحث عنها للعثور عليها متخفية صامتة وهامشية وهنا ينتمي المنهج الأركيولوجي للتيار ما بعد الحداثي الذي لا يؤمن ببراءة الحقيقة ولا وضوحها ولا مركزيتها، ولكن يؤمن أن الحقيقة مشروع مستمر للبحث وهو رحلة متواصلة "وعبر منهجه الأركيولوجي يقيم قطيعة حاسمة مع مطلق الفهم الميتافيزيقي للحقيقة، ليندرج في سياق مشروع النقد النيتشوي الذي يقوم على قلب الأفلاطونية، ليقدم مقاربة جديدة للفلسفة بعدها استراتيجية تشخيص وتأويل ترسم مسار تشكل الحقيقة"،[8] فلا سبيل إلى الانتماء لعصر ما بعد الحداثة إلا ويكون الانطلاق في المفاهيم من الفلسفة النيتشوية التي كانت أفكارها ذلك

المنعطف الشديد الذي ألغى كل اعتقاد مركزي أو محوري في سبيل الوصول إلى الحقيقة التي يعتقد أنها ليست واضحة ولا سهلة ولكن مستعصية.

ولعل من أبرز من مثل المنهج الأركيولوجي هو ميشال فوكو **Micheel Foucault** الذي ارتبط اسمه في زمن ما بالتيار البنيوي "إن الفلسفة التي أراد وقدم لها ميشال فوكو، ليست سوى ممارسة واستراتيجية نقدية تحليلية للحقيقة، تبحث في المهمش والمسكوت عنه في الفكر الغربي وتاريخ الفلسفة وتسعى إلى الانفكاك عن كل نوع من الفهم يقدم الفلسفة بالمعنى التقليدي الحداثوي، المعنى الذي يرتكز على منطق ثنائي القيمة في فهم الحقيقة، ومن ثم سيتضح لنا كيف إن الهم الأساسي لدى ميشال فوكو هو محاولته الانعتاق من النظرة التقليدية، للتاريخ وحمولتها المعرفية، ومقولاتها ليست غير مبررة والتي تقف عند سطح الحدث وتتماهى معه"،[9] فالمنهج التاريخي في نظره قاصر عن إدراك الحقيقة لأنه يكتفي بجمع ما تبعثر من الوثائق التي خلفها الزمن لا تحيل في كثير من حالاتها على المصداقية لانفصالها عن الذات أولا ثم سيطرة الذوات على سرد هذا التاريخ الغائب و المنتهي.

ورغم رفض ميشال فوكو للمنهج التاريخي كونه سبيلا غير مجد للوصول إلى الحقيقة، إلا أنه يعتقد أن الحقيقة موجودة في التاريخ ويجب البحث عنها هناك، لإيمانه بأن سيرورة الزمن تحكم على الحاضر بانقضائه ومنه لا يبقى سوى الأثر "حيث يرفض فوكو التاريخ التقليدي للأحداث الكبرى، ويقترح بدلا عنه تاريخا يضفي صفة الحياة على الفهم الاعتيادي للأحداث التاريخية فنجده يهتم بالأحداث القليلة الشأن في التاريخ، أكثر من اهتمامه بالأحداث الكبرى فأهمية الحدث لا تقاس بما يحمله من معنى وأهمية، بل بمكانته في مجال القوة الاجتماعية، فهو أي الحدث بؤرة لقلب المصادفة، حيث أدخل المصادفة بوصفها مقولة تسهم في إنتاج الحدث، من خلال منهج يتسم بجملة

من المفاهيم ذات الصيغة الإجرائية االبراغماتية في ذات الوقت"،[10] فكثيرا ما ترتبط الحقيقة بالصدفة في رأي ميشال فوكو، فلا مجال للبحث عن حقيقة تعمدت فيها الذات التأكيد عليها لتخليدها تلك المراكز حسبه تشوه الحقيقة وتمنعها من الظهور.

3- مبادئ المنهج الأركيولوجي عند ميشال فوكو: إن أبرز من تزعمه هو ميشال فوكو صاحب الكلمات والأشياء، وتاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، نظام الخطاب، وتأويل الذات، وكذا حفريات المعرفة، .... وفي هذا الموضع يختار البحث العودة إلى كتاب حفريات المعرفة لعله يجد سبيلا إلى التعرف على مبادئ هذا المنهج المستحدث الذي بذل سبيلا من أجل سد ثغرات المنهج التاريخي اعتقادا منه بأنه السبيل الوحيد للإحاطة بالمعرفة. عبر التنقيب والحفر في طبقات التاريخ وثناياه ليستنطق الكلمات في صمتها والأشياء في هامشيتها والأفكار في جزئيتها وانفصالها.

1.3 الانفصال في التاريخ: ارتبط المنهج الأركيولوجي بميشال فوكو، فوضع المبادئ التي يقوم عليها انطلاقا من التيار الذي رآه مناسبا لتتبع الظاهرة، ولعل ما استثاره هو تلك الثغرات والفجوات التي ارتبطت بالمنهج التاريخي، فالمنهج التاريخي يرسم لنا التاريخ في خط واحد مستمر ومتسلسلة أحداثه يستدعي كل واحد منها الآخر، اعتقادا منه أن المعارف تبنى كل منهما على الآخر، فيحاول عبر استراتيجياته أن يبحث في التاريخ عن هذا التسلسل الذي يسمح لنا بقراءة التاريخ قراءة واضحة تنطلق من مجموعة مراكز يجب التمحور حولها.

فالحقيقة والمعرفة والدلالة موجودة على السطح، وليس مطلوبا منا سوى إعادة ترتيبها عبر فترات زمنية متسلسلة، يقول، "وهكذا أخلت الأسئلة التقليدية التي كان التحليل التاريخي يطرحها (نحو ما الرابطة التي تجمع بين أحداث مشتتة؟ كيف نوجد بينها تسلسلا ضروريا؟ ما الاتصال الذي يسري فيها أو الدلالة العامة التي تنتهي

بشكلها، هل بالإمكان إدخالها في شكل موحد، أم لابد من الاقتصار على مجرد الرابط فيما بينها، السبيل إلى تساؤلات من نوع جديد، ما المراتب التي ينبغي عزل بعضها عن الآخر، ما أنواع السلاسل التي تجب إقامتها، ما مقاييس التحقيق التي يلزم اتخاذها إزاء كل واحد منها، ما منظومة العلاقات (تدرج أو هيمنة أو ترتب أو تحديد وحيد الجانب أو علية دائرية) التي ينبغي إثباتها بين هذه السلسلة أو تلك وما هي سلاسل السلاسل التي ينبغي إقامتها داخل أي جدول زماني رحب، يمكننا أن نعين مجموعات متمايزة من الأحداث"،[11] ولعل الانطلاق من هذه الأسئلة في صناعة التاريخ هو تبسيط للمعرفة وتغييب للأشياء في الزمن أكثر مما هي غائبة، فالأصل في المعرفة على حد اعتقاده ليس قراءة ما هو موجود ظاهر وبين طيات وثائق وضعت على سطح التاريخ –عمدا–، فهذه المعرفة ليست حقيقية بقدر ما هي مصطنعة من وضع الذوات، كما أن العلاقة التي تربط بين أحداث التاريخ ليست متسلسلة ولا متلازمة كما يعتقد، فالتاريخ كتلة من التشابك والانقلابات الطارئة أحيانا والمفاجئة أحيانا أخرى.

وفي مقابل ما قيل عن التاريخ يؤمن ميشال فوكو بالتركيز في قراءة التاريخ على جوانب أخرى يعتقد أنها من صنعت التاريخ، فالبحث يتجه إلى ما لم يقله الخطاب وإلى الغياب في التاريخ، فليست صناعة التاريخ بالسهولة التي يعتقد، فكل معرفة هي وليدة صراعات وانعطافات شديدة، فلا تكون المعرفة من صنع ذوات في التاريخ ولكنها تنتج عن هذه الانقلابات والمفارقات في عمق التاريخ وغياباته، وأعماقه وأن ما يظهر ليس نتيجة طبيعية لما حدث ولكنه نتاج ظروف وإصرار على الاستمرار رغم كل شيء" عكس ما سبق من الوحدات المتسقة التي كانت توصف كعصور وقرون صوب ظواهر الانفصال، فوراء الاتصالات الكبرى للفكر، وراء التجليات العظمى والمتجانسة لروح أو العقلية الجماعية، وخلف الصيرورة العنيدة لعلم متماسك بأن يوجد وأن يكتمل منذ بدايته، وخلف إصرار جنس من الأجناس الأدبية أو شكل من الأشكال، وفرع معرفي ما من

الفروع المعرفة أو نشاطا من الأنشطة النظرية ينكب البحث حاليا على رصد عواقب الانقطاعات تلك الانقطاعات التي تتباين تباينا كبيرا فيما يخص طبيعتها"،[12] فالعلاقة التي تجمع بين مراحل التاريخ ليست متسلسلة ولكن منفصلة، منقطعة فالتركيز عند فوكو ينصب على دراسة الانقطاعات في التاريخ والصعوبات التي أدت إلى صناعته، بعيدا عن القراءة الخطية التي لا علاقة لها بالظروف الحقيقية وراء صناعة التاريخ، ولهذا يهتم ميشال فوكو في قراءته للتاريخ برصد كل الظواهر التي تخلخل الخطاب من الداخل، والقضية هنا متعلقة بكل ما يراه مزعزعا لتلك الخطية التي تبدو بها الأحداث عبر التاريخ في صورتها البريئة والمباشرة، التي يبدو وكأنها وضعت عمدا من طرف ذوات.

فالتاريخ يقوم على مفهوم الانفصال وليس الاتصال، ذلك أنه يصنع من طرف عديد الذوات وليست ذاتا واحدة، فالمنهج الأركيولوجي لا يهمش الصغائر مهما كان حجمها وضرورة وجودها في التاريخ، والأمر الذي يحدث مع علماء التاريخ وفق المنهج التاريخي أنهم يصرون على تركيزهم في البنيات السطحية الواضحة والبينة ولا يعيرون اهتماما لكل الإحالات المباغتة في التاريخ لاعتقادهم أنها لا تدخل ضمن العينة التي ينطلقون منها في صناعة مراجع التاريخ، فالمنهج التاريخي هو العلم الذي يقوم على مبادئ المنهج التجريبي الذي وضع شروطه أرسطو قديما، والذي ربط الوثائق الحسية بشرط التكرار والمطابقة، وما عدى ذلك يدخل ضمن الشاذ الذي لا يجوز الانطلاق منه في صناعة التاريخ، ولكن القضية حسب فوكو متعلقة بهذه الأحداث التي لا مجال لإغفالها وإلا وقع الخطأ في تقدير الحقيقة، فالأحداث إن لم ندرس أسباب انفصالها وقعنا في فخ التناقض، وهي مضرة بالحقيقة أكثر من عملية انتقاء الأحداث قصد الحكم بخطيتها واستمراريتها.

فالانفصال متعلق بالشاذ من الأحداث، والمقصود بالشاذ من الأحداث تلك التي تأتي فجأة في التاريخ دون أسباب ولا مبررات، ولا سبيل للبحث خارج هذه الأحداث لأن التاريخ يصنع من طرف مجموعة ذوات لابد أن الاختلاف هو أهم ما يميز العلاقة بينهم، وهذا ما كان دارس التاريخ يتغاضى عنه ويهمشه في سبيل رسم سلسلة للتاريخ متصلة تحيل كل منها إلى غيرها في سياق خطي مستمر" إن مفهوم الانفصال أصبح يحتل مكانة كبرى في فروع المعرفة التاريخية ذلك أن التاريخ في ثوبه الكلاسيكي كان يفترض الانفصال معطى لكنه غير قابل لأن يفكر فيه إنه يظهر في صورة أحداث مبعثرة كالقرارات والأحداث والمبادرات والاكتشافات وما ينبغي الإحاطة به في طريق التحليل بغية إلغائه ومحوه وإقصائه كي يظهر اتصال الأحداث"،[13] فالمنهج التاريخي يقتضي الإيمان بالاستمرار طريقا وحيدا للحقيقة وكل ما يصادفه من انثناءات في التاريخ يغيبه و يلغيه، خوفا منه على مسار المعرفة التي ينبغي أن لا تنقطع و تهمش في طريقها كل ما يحاول عرقلة استمرارها، فاصلا في الوقت نفسه بين المعرفة التي يحملها التاريخ وبين الأحداث المباغتة و المفاجئة التي يعتقد أنها لا قيمة لها في التاريخ ولا وجود وأن المعرفة تتكون من سلسلة الاتصالات الواضحة والظاهرة.

2.3 في مفهوم الأثر: ارتبط اسم ميشال فوكو بالأثر وهو المصطلح الذي يعتقد أنه الأصح عند الحديث عن بنيات التاريخ، فالأثر هو الوثيقة الحسية في غياب الذوات التي رسمتها، وحجته في ذلك أن ما يخلفه التاريخ منفصل عن الذوات التي اختلفت أسبابها في كتابته كما تختلف تلك العلاقة التي تجمع بينه وبين مؤلفه، وهذه القضية هي إعادة طرح لتلك العلاقة التي تجمع بين المؤلف ومؤلفه، أو قضية موت المؤلف، فالزمن يخلق فجوة بين المؤلف ومؤلفه، ويدخل ذلك في إطار الحديث عن زوال الإنسان وتناهيه، فالإنسان كائن متناه سائر نحو النهاية وأنه لا يبقى منه سوى الأثر.

بين الأثر وصاحبه فجوة كبيرة مختلفة، وعلى اختلاف صور الأثر وصحة نسبته لصاحبه واكتماله كمشروع يبقى التأجيل هو الشعار الذي يرفعه، "أما الأثر فيثير مشاكل أعوص، وقد كان من المفروض على ما يبدو ألا يثيرها خصوصا وأن الأمر لا يعدو مجموعة نصوص يمكن الإشارة إليها، باسم يدل على صاحبها، لكن هذه الدلالة الذاتية حتى لو طرحنا جانبا من المشاكل المتعلقة بصحة نسبة الأثر إلى صاحبه، تبقى وظيفة غير متجانسة، فهل يدل اسم المؤلف وبنفس الكيفية على نص نشره هو نفسه باسمه، أو على نص نشر باسم مستعار، أو على نص آخر لا زال في هيئة مشروع أو مسودة عثر عليها بعد وفاته، أو حتى على نص كتب بخط ردئ أو على نص آخر لا زال في هيئة مشروع أو مسودة عثر عليها بعد وفاته"،[14] فالأثر على حد اعتقاد ميشال فوكو ليس واضحا في رسم حدود التاريخ، والقضية هنا متعلقة بتلك الفجوة التي تفصل بين الأثر والكاتب الذي ينسب إليه الأثر، وكلامه هذا ترديد للمثالب التي نسبت للمنهج التاريخي من طرف النقاد، إذ أهم ما قيل فيه أنه يفتقر للمصداقية وأن الذاتية هي التي تتحكم في مسرى التاريخ، بحسب ما يخدم مصالحها، فالكتابة في النهاية هي تعبير عن الذات.

فالأثر لا يمكن التسليم بما يطرحه إلا بعد زعزعة ركائزه، فإن استطاع الصمود اعتمد عليه كمرجع في التاريخ، وإذا انهار وسقط وسط الأحداث الأخرى وأثبت تناقضا صار غير قادر على الاستمرار رغم التمركز الذي يحتله عبر التاريخ، فالتفكيك هو شعار ميشال فوكو عند قراءة الوثائق التاريخية، فالزعزعة وإعادة الترتيب هي شعاره عند قراءة التاريخ" لن أقبل بالمجموعات التي يقترحها علي التاريخ إلا لأعرضها فورا لمحك السؤال، ولأفككها من أجل معرفة ما إذا كان بالمستطاع إعادة بنائها بصورة صحيحة أو معرفة ما إذا لم يكن من اللازم أن ننشئ منها، مجموعات ثابتة، أو من أجل ردها إلى مكان أرحب وأوسع يسمح بتنظيرها وذلك بتبديد ألفتها المظهرية"،[15]

يجب أن نبحث عن ما كان ينبغي أن يقال وليس ما قيل، لأن الحقيقة موجودة خلف المجاز و الصمت والهامش والمستبعد، والمرجع في التاريخ لا يكتسب مصداقية إلا بعد أن يخضع لمحك المساءلة من طرف الدارس والبحث عن مواطن التناقض في علاقتها بالمراجع الأخرى أو حتى في تفاصيل الأحداث التي يرويها هذا المرجع في ذاته.

فالمرجع في التاريخ ليس معطى نهائي يجب الانطلاق منه في إعادة صياغة التاريخ، ولكن زعزعة تمركزه من أجل إعادة ترتيبه، والترتيب هنا يقوم على إعادة الاعتبار لكل مهمش مستبعد فقيمة المركز تكمن في صموده وهو يواجه التناقضات وليس في الصورة التي وصل إلينا على هيئتها عبر التاريخ، فالأحكام الجاهزة هي السبب في، "إن الالغاء المنهجي للوحدات الجاهزة والمسبقة، يخيل لنا في الواقع أن نعيد للعبارة تميزها كحدث، وأن نؤكد أن الانفصال ليس مجرد حادث من تلك الحوادث الكبرى التي يشهدها التاريخ، والتي تصيب طبقاته الجيولوجية بتصدع وانشقاق بل هو أولا وقبل كل شيء حدث يصيب العبارة، على بساطتها ورغم صغرها، تلك العبارة التي تنبجس بغتة في التاريخ وتظهر كحدث لا أصل له، وإن ما نتوخى إظهاره هنا هو الانشقاق الدقيق الذي تحدثه"،[16] فالانفصال في التاريخ وجود لا بد منه وتهميشه يشوش على التاريخ استمراره وخطيته.

فقراءة التاريخ يجب أن تكون كلية لا يهمش فيها أثر مهما كانت ظروف إيجاده عبر التاريخ، وفي الوقت نفسه ليست الآثار المركزية في التاريخ معيارا ودليل المصداقية، ولكن قيمة الخطاب تكمن في قدرته على تجاوز المساءلة و الاتهامات التي توجه له من طرف القارئ في سبيل الكشف عن المصداقية التي يجب أن لا تتعارض معها معطياته ومراحله، فالتاريخ لا يبنى على الاستمرار مطلقا، والصورة التي يصل إلينا فيها دليل على عدم براءتها واستدعائها للمساءلة، كما أن عثرات التاريخ

تكمن في نصوصه المهمشة والمفاجئة والشاذة، ولا ريب أن للحقيقة علاقة بوجودها منتشرة في التاريخ تحتاج من يبحث عنها و يعيدها للوجود كمراحل انفصالية في التاريخ لا يبنى التاريخ إلا بوجودها وعلى أساسها.

3.3 التناقض وفجوات الخطاب: يطرح الانفصال في التاريخ عديد الاشكالات أهمها تلك الفراغات التي تتوسط مراحل التاريخ فتمنع من الاتصال، ولعل ما يشير إلى وجود هذه الثغرات والفجوات هو التناقض بوصفه أعظم عدو للحقيقة فالمراجع التي يحملها التاريخ عبر الزمن يتوسطها التناقض ليفسر أشياء التاريخ المبعثرة هنا وهناك و يجمعها عبر وسيط الخلاف، فالتاريخ لا يقرأ بحرفيته، لأنه لا ينتظر من القارئ تأويلا ولا تفسيرا ولكن يقرأ في علاقته بالواقع لكشف ثغراته وهفواته، "فهي لا تنظر إلى الخطاب على أنه وثيقة ولا تعتبره علامة أو إشارة تحيل إلى شيء آخر كما لا ترى فيه عصرا، مهما بلغ من الشفافية نكون ملزمين في الغالب الأعم باختراق عتمته وضبابيته حتى نصل أخيرا إلى حيث يقبع ما هو عميق وجوهري فيه بل تعني بالخطاب في حد ذاته بوصفه نصا أثريا فحفريات المعرفة ليست مبحثا تأويليا ما دامت لا تسعى إلى اكتشاف خطاب آخر، يتوارى خلف الخطاب كما ترفض أن تكون دراسة تبحث عن المعنى الحقيقي خلف المعنى الظاهر، فهي ليست مبحثا مجازيا"،[17] فالتاريخ ليس شفافا ولا هو يبنى على المجاز حتى يحاول القارئ الاعتماد على معطياته للبحث عنه وسط ركام الماضي، ولكن وجهة القارئ وفق المنهج الأركيولوجي وهو البحث الذي يسعى للبحث عن ما يلغي الخطاب الظاهر عن طريق البحث في عتمته، ولا سبيل لإدراك هذه المرامي إلا بتهميش المراكز التي يسردها التاريخ، لأنها لا تمثل في نظر القارئ سوى سبلا للتمويه والتعمية و إخفاء الحقيقة في طبقات عميقة من هذا التاريخ المنتهي في الزمن.

فالتناقضات في الخطاب على حد اعتقاد ميشال فوكو هو السلوك الوحيد غير المتعمد إذ يطفو على السطح دون انتباه الذات ولا تخطيط، ففي حين تسعى الذات إلى

إيصال فكرة ما، تصدر عنها الهفوات والزلات لتحيل إلى عدم براءة الخطاب و إلى غياب تم إخفاؤه" تبقى التناقضات المترسبة وحدها، عوارض خلل أو الصدع، أو بتر بالعكس التناقض الأساسي، كما لو أن البحث أفضى إليه بصمت ورغما عنه، من أجل الانطلاق في أصل المنظومة ذاته، من مسلمات متنافرة، أو نتيجة النقاد تأثيرات متعارضة، أو انحراف أولي للرغبة أو صراع اقتصادي وسياسي يعصف بالمجتمع" ،[18] فالتاريخ ملئ بالتناقضات التي يحيل إليها الخطاب.

والقول بهذه المبادئ في المنهج الأركيولوجي مرده التيار ما بعد الحداثي، من حيث تصوره للدلالة، فالبحث عن المعرفة أو الحقيقة أو الدلالة لا يعتمد على المراكز كما تبدو وتحيل ولكن وجب التركيز على الخطاب من خلال هفواته وزلاته وحالاته المختلفة، التي تحيل إلى زعزعة هذه الأحداث وكشف مالم يقله الخطاب، وما لم يحل إليه من طرف الذات المؤرخة التي تفتقر للمصداقية في نقل الواقع على صورته وفي حقيقته.

4-خاتمة: يصل البحث في نهايته إلى رصد مجموعة من النتائج التي حاولت مقاربة الإشكالية القائمة بين المنهج التاريخي والمنهج الأركيولوجي، الذي يبدو أنهما يبحثان عن الحقيقة في التاريخ ويحاولان ترتيب الأحداث فيه، قصد إنارة هذا الزمن الزائل والمنتهي.

-بعد تجاوز المنهج التاريخي من طرف المناهج النسقية، لما فيه من مآخذ نسبت إليه، عاد الناقد للالتحام حوله من جديد، لأنه بقي يشوش على الحاضر اتزانه وظهر على صورة جديدة لمقاربة هذا التاريخ، لأن الحقيقة لا تستقيم إلا في وجوده، وهو دعوى ظهور المنهج الإركيولوجي.

-رغم أن التاريخ هو وجهة المنهجين إلا أن هناك اختلافا كبيرا بين المبادئ التي قال بها كلاهما، إذ المنهج التاريخي يؤمن بالمراكز أساسا لترتيب معطيات التاريخ، في حين لا يرى المنهج الأركيولوجي في هذه المراكز تفسيرا للحقيقة ولا إلى المعرفة.

-حاول المنهج الأركيولوجي تجاوز المآخذ التي نسبت للمنهج التاريخي من طرف النقاد خاصة تلك المتعلقة بالمصداقية والذاتية، والتسطيح على مستوى المعرفة، لأن المبادئ التي انطلق منها مختلفة عن مبادئه.

-رغم أن المنهج التاريخي ينطلق من الوثائق الحسية وهي مبرر المنهج العلمي والتجريبي، إلا أن انفصال الوثائق الحسية عن زمانها ومكانها يضعها في محك المساءلة، فلا سبيل للتأكد من صحتها في غياب ذواتها وزمانها وكذا مكانها ولا سبيل لإحضارهم في الحاضر السائر نحو النهاية..

-المنهج الأركيولوجي هو نفسه علم الآثار، وقد حمل مفهومه، إذ يتولى عملية التنقيب والنبش في طبقات الأرض من أجل البحث عن حقائق تاريخية متخفية ومردومة، فالحفر هو وسيلته لمقاربة الحقيقة في اختبائها و انفصالها وكذا اختلافها عن ما يحيل إليها.

-يقوم المنهج الأركيولوجي عند ميشال فوكو على مجموعة مبادئ أهمها الإيمان بالانفصال في التاريخ، فالوحدات المتسلسلة التي يحملها التاريخ عبر الزمن ليست حقيقة تحيل إلى تلك الحقبة، وأنه لا يمكن أن يخلو التاريخ من الانفصالات لاختلاف الذوات التي شاركت في صناعته.

-ثاني المبادئ التي وضعها ميشال فوكو هي مفهوم الأثر، وهو التعامل مع الأثر بمعزل عن الذات التي صنعته، لأنه لا دليل على العلاقة التي جمعت بينهم في زمن ما، فتخضع الأثر للمساءلة بغض النظر عن انتمائه وأصله.

–وآخر مبدأ آمن به ميشال فوكو هو التناقض وفجوات الخطاب، الخطاب الذي يحمله التاريخ إلينا لا يخلو من التناقضات والتناقضات بدورها تحيل إلى الثغرات والفجوات في التاريخ الذي وجب الوقوف عنده لمقاربة هذه العتمات والضبابية التي تميز هذه النصوص.

5- قائمة المراجع:

1-- براين فيغن: مختصر تاريخ الأركيولوجيا علم الآثار والفنون القديمة، ترجمة: أحمد الزبيدي، دار الكتب العلمية ط:1، 2019،

2- حميدي لخضر: طبيعة المنهج الأركيولوجي: ، مجلة المداد المجلد 8، العدد 02 شهر ديسمبر- جامعة المسيلة- 2020،.

3-حيدر ناظم محمد: إشكالية الفلسفة من النقد الأركيولوجي إلى الإبداع المفهومي – قراءة في فلسفة ميشال فوكو وجيل دولوز-، دار الروافد ناشرون، ابن النديم للنشر والتوزيع – الجزائر- ط:1، 2015

4-عاصم محمد رزق: علم الآثار بين النظرية والتطبيق، مكتبة مدبولي دون بلد، د ط، 1996

5-فوزي العلوي: حفر في أركيولوجيا العدمية لدى ميشال فوكو، دار المعارف العلمية- بيروت لبنان-ط: 1، 2018،

6- قاسم يزبك: التاريخ منهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني- بيروت – ط: 1، 1990.

7- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة : سالم يافوت، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء المغرب- ط: 2، 1987.

6- الهوامش والإحالات:

[1]قاسم يزبك: التاريخ منهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني- بيروت – ط: 1، 1990. ص 3.

- [2]المرجع نفسه ص 48

[3]-فوزي العلوي: حفر في أركيولوجيا العدمية لدى ميشال فوكو، دار المعارف العلمية- بيروت لبنان-ط: 1، 2018، ص 14.

[4]- حميدي لخضر: المنهج الأركيولوجي: المنهج الأركيولوجي عند ميشال فوكو، مجلة المداد- جامعة المسيلة- 2020، ص 24.

[5]- براين فيغن: مختصر تاريخ الأركيولوجيا علم الآثار والفنون القديمة، ترجمة: أحمد الزبيدي، دار الكتب العلمية ط:1، 2019، ص 16.

[6]-عاصم محمد رزق: علم الآثار بين النظرية والتطبيق، مكتبة مدبولي 1996، ص 13.

[7]-حيدر ناظم محمد: إشكالية الفلسفة من النقد الأركيولوجي إلى الإبداع المفهومي – قراءة في فلسفة ميشال فوكو وجيل دولوز-، دار الروافد ناشرون، ص 90.

[8]- المرجع نفسه، ص 93.

[9]- المرجع نفسه، ص 86.

[10]- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[11]- ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يافوت، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء المغرب- ط: 2، 1987، ص ص 5-6.

[12]- المرجع نفسه، ص 6.

[13]- المرجع نفسه، ص 10.

[14]- المرجع نفسه، ص 24.

[15]- المرجع نفسه، ص 26.

[16]- المرجع نفسه، ص 28.

[17]–المرجع نفسه، ص 128.

[18]– المرجع نفسه، ص139.